

ما يجب على الأمير فعله فيما يخص الجنديّة (الجند)

يجب ألا يكون للأمير هدف آخر ولا تفكير آخر... ولا فن آخر سوى الحرب وترتيبات الحرب وتنظيماتها لأنها الفن الوحيد المُنتظر من الحاكم.. وهذا الفن من التمييز والفضيلة بحيث أنّه لا يحافظ فقط على أولئك الذين ولدوا أمراء.. بل يوصل أشخاص آخرين بحظوظهم ووسائلهم من الطبقة البسيطة إلى مرتبة الأمراء وهذا ما حدث مراراً وتكراراً... عندما يفكر الأمير بملاذاته الخاصة أكثر مما يفكر بجيوشه يفقد دولته.. والسبب الأول لفقدانها هو الإهمال لهذا الفن... أمّا ما يجعلك تكسبها فهو أن تكون معلماً ماهراً في هذا الفن.. "فرانسيسكو سورزا" أصبح دوقاً في "ميلان" بعد أن كان رجلاً عادياً لأنه اختار أن يكون مسلحاً أي اهتم بالجيش.. لكن أولاده رجعوا من مرتبة الدوق إلى أناس عاديين لأنهم فضّلوا الابتعاد عن متاعب الجيش. فالأمير الأعزل يُحتقر وهذه سمعة سيئة على الأمير تجنّبها.. فليس هناك أي وجه شبه بين رجل مسلّح ورجل أعزل.. والمنطق لا يقبل إطلاقاً أن يخضع الرجل المسلّح.. لإرادة الرجل الأعزل.. ولا أن يكون الأعزل في أمان بين خدمه المسلّحين. لأنّه سيُحقّر عند البعض ويرتاب عند الآخرين فمن غير الممكن أن يعملوا معاً بشكل جيد لأن الأمير الذي لا يفهم شيئاً في الجنديّة لا يمكن أن يكون محترماً ولا موثقاً به من جنوده..

إذاً.. على الأمير ألاّ يبعد تفكيره عن هذا التدريب على الحرب.. وعليه أن يتمرّن في السلم أكثر مما يتمرّن في الحرب. ويمكن أن يقوم بتمرينه هذا بشكلين:

الأول عن طريق الفعل.. والثاني عن طريق الفكر..

بالنسبة للفعل... فبالإضافة إلى جعل جيوشه منظّمة جداً وتمرّسة، عليه أن يذهب دائماً إلى الصيد.. ومن خلال الصيد يعتاد الجسم على المتاعب وفي الوقت ذاته يتعرّف الأمير على طبيعة الأراضي.. ويعرف كيف تنتصب الجبال وتفتح الوديان.. وتمتد السهول ويفهم طبيعة الأنهار والمستنقعات.. فيستعدّ جيداً لكل هذا... وهذه معرفة مفيدة جداً من ناحيتين: أولاً يتعرف على بلده.. فيتمكن من فهم مواقع الدفاع فيه بشكل أفضل. ثانياً

سيساعده هذا عن طريق المعرفة النظرية والعملية من الفهم بسهولة أكبر كل موقع آخر سيكون لازماً عليه معرفته للمرة الأولى. لأن التلال والوديان والسهول والأنهار والمستنقعات التي في "توسكان" مثلاً لها شبيهات في مناطق أخرى. فمعرفة موقع ما في منطقة ما يمكن أن يساعد في معرفة المواقع الأخرى... والأمير الذي تنقصه هذه الكفاءة، تنقصه الصفة الأساسية الواجب توفرها في القائد العسكري، لأن هذه الميزة تعلّمه كيف يجد عدوّه.. وكيف يحدد الأماكن المناسبة للمعسكر.. وكيف يقود جيشه وينظم أيام قتاله.. ويحاصر المدن بطريقة مناسبة ومفيدة له.

"فيلوبومين" أمير "أشين" مُدح كثيراً وأثنى عليه.. ومن بين المديح الموجّه إليه من الكتاب.. أنّه لا يفكر بشيء آخر في وقت السلم إلا الحرب وطرقها. فعندما يكون في الريف مع أصدقائه غالباً ما كان يتوقّف ليفكر معهم... "إن كان الأعداء على هذه الهضبة.. ونحن هنا بجيوشنا.. مَنْ مَتاً سيكون المميّز بموقعه؟ كيف نستطيع أن نواجهه دون أن يختلّ تنظيمنا؟ إذا أردنا الانسحاب كيف يمكننا تنفيذه؟ إذا انسحبوا مُهم، كيف يجب علينا مُلاحقتهم؟..." وكان يطرح عليهم كل الحالات التي يمكن للجيش أن يتواجد فيها.. ويستمع إلى آرائهم ويقول رأيّه.. ويدعمه بالأسباب والتعليل.. وهكذا عندما كان يقود جيشه لم يكن يواجهه أي مازق إطلاقاً دون أن يجد له الحل...

بالنسبة لتمرين الفكر.. فعلى الأمير أن يقرأ التاريخ.. وأن يتأمّل تصرفات وأفعال الرجال المتفوقين، وأن يرى كيف كانوا يسلكون في الحرب، وأن يتفحّص أسباب انتصاراتهم وانهزماتهم ليستطيع أن يحتذي بالأولى ويتعد عن الأخرى.. حيث يمكنه أن يفعل كما فعل، في الماضي، رجالٌ وعظماء قبله؟؟ فيأخذ منهم دائماً حركاتهم وأفعالهم. مثلما قلنا عن "ألكسندر العظيم" بأنّه كان يقلّد "أخيل"، "سبيون" كان يقلّد "سيروز".

فمن يقرأ عن حياة "سيروز" مثلاً والتي كتبها "كسينوفون" سيعرف فيما بعد عندما يطّلع على حياة "سبيون" كم كانت تلك المحاكاة سبباً في تعظيمه وكم امتثل "سبيون" بالعقّة والإنسانية واللطافة والعطاء.. بأشياء كانت مكتوبة عن "سيروز" من قِبل "كسينوفون".

إذاً على الأمير الحكيم المتعقّل أن يتصرّف بطرق مشابهة.. وألاّ يبقى خاملاً كسولاً في وقت السلم.. بل عليه أن يجعل من هذا الوقت أساساً في

مهنته (مهنة الحرب) ليتمكن من الاستفادة منه في زمن المحن والشدائد.
فإذا خانه الحظ.. سيجد ما اكتسبه في السلم مستعداً لمساعدته ودعمه.

أشياء من أجلها يلام الرجال أو يمدحون.. وخاصة الأمراء

بقي الآن أن نرى طرق ووسائل الحكم الواجب على الأمير اتباعها سواءً مع رعبته أو مع أصدقائه. ولأنني أعلم بأنه قد كُتب الكثير في هذا الموضوع.. وأخشى أن اتهم بالادعاء إن أنا كتبت بنفس الموضوع، لذلك فقد ابتعدت عن أنظمة الآخرين وبالأخص عن المناقشة في هذا الموضوع.

لكن مقصدي هو كتابة شيء مفيد لمن يقرأ كتابي.. ويبدو لي الذهاب نحو الحقيقة الفعالة للشيء مباشرةً مناسباً أكثر من تخيل جمهوريات أو إمارات بطريقة لا تشبهها أبداً ولا تُرى في الواقع أبداً لأن هذا الخيال لا يصل إلى الواقع إطلاقاً^(١) فهناك فرق شاسع بين الطريقة التي نحيا بها والطريقة التي يجب علينا أن نعيش بها، لدرجة أن من يترك ما وصل إليه من أجل ما سيصل إليه.. لن يصل إلا إلى دماره...

إنَّ الرجل الذي يريد أن يفتخر بكل صفات الإنسان الجيد، يسعى بالتأكيد إلى دماره بين مجموعة من السيئين، إذاً.. على الأمير الذي يريد الاحتفاظ بمكانته أن يسعى لنأى يكون طيباً جداً - وليعرف كيف يستخدم الطيبة المحدودة هذه أولاً يستخدمها حسب الضرورة.

والآن لنترك الأشياء المتخيلة فيما يخص الأمير جانباً.. ولنناقش الأمور الواقعية لقد قلتُ أنه على كل الرجال وخاصة الأمراء، الذين يريدون أن يصلوا إلى أعلى الدرجات الممكنة، أن يكون لديهم الميزات التي توصلهم إمّا للوم أو للمديح..

فمثلاً.. هذا يؤخذ عليه كرمه.. والآخر بخله.. هذا مانح معطاء والآخر جشع طماع.. هذا قاسي وذلك يدعو للثناء.. أحدهم كاذب ملحد والآخر

(١) - بالتأكيد يمكننا أن نتوصل إلى تحديد من تكلم عنهم هنا.. لكن علينا أن نلاحظ أن "ميكافيلي" قد وضع الأسماء عمداً، من "أفلاطون" إلى "ماكيو بالميري" كاتب "الحياة المدنية" .. مروراً بـ "دانتي"، "سان توماس" وطلابه والآخرين من مذكرات الأمراء، إنهم متعددون ممن أعدوا الخيال والأوهام أو شكّلوا الضوابط والقوانين لفن الحكم، إن رفض المدن المتخيلة شيء موجود عند أغلب معاصري "ميكافيلي" ٨٠

صادقاً يستحق الثقة.. واحدٌ مخبّثٌ رعديد.. والثاني شرسٌ شجاع.. واحدٌ إنساني والآخر متعجرف.. واحدٌ شهواني والثاني عفيفٌ طاهر.. واحدٌ واضح والآخر محتال.. واحدٌ صلب والآخر سهل.. أحدهم خطير والآخر خفيف لطيف.. واحدٌ متدين والآخر ملحد... وأشياء أخرى مشابهة... واعلم أن لا أحد يُنكر أنه من الخلق جداً بالثناء أن تجد أميراً يملك شيئاً من كل تلك الصفات الواردة أعلاه، التي تؤدي إلى العطاء والطيبة.. لكن بما أنه لا يمكن امتلاكها جميعاً، ولا ملاحظتها بشكل كامل.. بسبب ظروف الحياة الإنسانية التي لا تسمح بذلك.. فمن الأفضل للأمير أن يكون حكيماً جداً ليعرف كيف يتجنب السمعة السيئة للرذائل التي يمكن أن تنتزع منه دولته... وأن يعرف كيف يحفظ نفسه من تلك التي لا تؤدي لذلك.. فإن لم يستطع حفظ نفسه منها.. يمكنه أن ينغمس فيها من غير تباطؤ.. حتى إن عليه ألا يتردد في قبول السمعة السيئة لهذه الرذائل اللازمة للاحتفاظ بدولته.. لأنه بالسعي إلى كل ما هو جيد سيأخذ شيئاً من الفضيلة.. ولكن إتباعه سيكون دماراً... وبالعكس فإن شيء آخر سيبدو رذيلة ولكن بإتباعه سيكون الأمن والرفاهية...

عن السخاء والجود والإفراط في التقدير

سيتم البدء بالحديث عن أول صفة من الصفات المسماة أعلاه.. لقد قلت بأنه من الجيد أن ينشبت الأمير بالجود. لكن هذا الجود المستخدم لمنحك الشهرة لن يجلب لك إلا الضرر.. لأنه إذا استخدم كما يجب أن يُستخدم.. أي بفضيلة.. فإنه لن يُعرف أبداً.. ولن تتجاوز أنت صفة نقيضه. لذلك، إذا أردت أن تحتفظ بين الناس بسمعة الكريم عليك ألا تتخلى عن أن نوع ممن أنواع الكرم والبذخ.. وهكذا ستستنفذ بهذه الأعمال ومشابهها كل مواردك... لتصل في نهاية المطاف إلى العوز والحاجة، فإذا أردت الاستمرار في هذا لكرم يتوجب عليك أن تحمّل الشعب ضرائباً كبيرة جداً، وألا تتسامح مع أحدٍ منهم، وأن تقوم بكل ما يُمكن للحصول على المال.. وهذا ما سيجعلك مكروهاً من شعبك.. ومحقراً بسبب فقرك من كل شخص.

إذاً، مع هذا الجود الخاطئ حيث قُتِرت على الكثير من رعيّتك؟ القليل.. ستسقط عند أول خطر حقيقي يلمُّ بك.. وستُترك ذلك وتود التراجع عنه... ولكن الوقت سيكون قد فات.. وستكون قد حصلت على اللقب السيء الذي طالما تجبّته (مقتر). لذلك يجب على الأمير الذي لا يستطيع استخدام هذه الفضيلة في الكرم بطريقة جيدة وصحيحة تجعلها معروفة دون أن تسبب له الضرر.. أن يتقبّل لقب "المقتر" وألا يتضايق منه إن كان حكيماً.. لأنه سيُصبح مع الوقت ملتزماً بالكرم الحقيقي دائماً.. وسيُرى أن هذه الموارد تكفيه بفضل تقديره... وأن بإمكانه الدفاع عن نفسه ضد من يُحاربه.. وأنه قادر على قيادة المشاريع دون أن يحمّل الشعب ضرائب لا طاقة له بها.

إن مثل هذا الأمير سيبدو سخياً معطاءً لأولئك الذين لا يأخذ منهم شيئاً. وهم الأغلبية اللامتناهية.. بينما ستظهر بمظهر البخيل المقتر بالنسبة لمن لا يعطيهم شيئاً وهم الأقلية وفي عصرنا الحاضر، لا نرى هؤلاء الأمراء يقومون بأشياء عظيمة.. لاسيما أولئك الذين يتصفون بالبخل. لقد استفاد البابا "يوليوس الثاني" من لقب الكريم في الوصول إلى كرسي الباباوية^(١)..

(١) - تلميح إلى أن البابا "يوليوس الثاني" قد أغدق الأموال والزعود بالمراكز مقابل اختياره للباباوية.

لكنه بعد وصوله لم يعد يفكر في الحفاظ على هذا الكرم لأنه إلتفت إلى الحروب. أمّا ملك " فرنسا " الحالي فقد قام بعدد من الحروب دون أن يفرض الضرائب الغير محتملة... وذلك لأنه كان يتجنّب النفقات الزائدة منذ زمن طويل...

أمّا بالنسبة لملك " إسبانيا " الحالي.. فلو أنّه وصّف بالكريم.. لما استطاع تحقيق هذا القدر من المشاريع بنجاح.

بالنتيجة.. يجب على الأمير أن يهتم بأن يُعامل كبخيل.. كي لا يضطر إلى نهب رعيّته.. ولكي يستطيع في نفس الوقت أن يُدافع عن نفسه... ولا يُصبح فقيراً مُحترقاً.. فيصلُ بالنتيجة إلى الجشع والاحتيال. فالبخل هو أحد الرذائل التي تضمن البقاء في الحكم، وإن قال أحد: «إنّ "قيصر" السياسي الروماني قد توصّل إلى السلطة عن طريق كرمه.. وأنّ أشخاصاً آخرين كُثر قد حصلوا على مراتب عالية جداً لأنهم أظهروا الكرم واعتبروا كرماء... فسأجيبه بأنّه إن كنت أميراً.. أو كنت تسعى لذلك فإنّ هذا الكرم سيشكّل خطراً عليك في الحالة الأولى... أمّا في الثانية فإنّه سيكون ضرورياً.. و"قيصر" كان واحداً ممن أرادوا الوصول إلى إمارة "روما".. لكن الاستمرار في الكرم وعدم الاعتدال في النفقات بعد التوصل إلى هذه الإمارة أدّى إلى دمار سلطته. وهنا إن ناقشني شخص آخر قائلاً: «كثيرون هم من أصبحوا أمراء.. ثم قاموا بأشياء عظيمة مع الجيوش والسلام.. وبقبوا متشبّثين بالكرم المفرط».

أرد عليه قائلاً: إمّا أن يُنفق الأمير من أمواله الخاصة وأموال شعبه.. أو أن يُنفق من مال غيره. في الحالة الأولى عليه أن يقرّر بقدر ما يستطيع.. أمّا في الحالة الثانية فعليه ألا يتخلّى عن أي جانب من جوانب الكرم.. فالأمير الذي يقود جيش يتعدّى من الغنائم والنهب والفديات، يُنفق من أموال غيره وهنا يكون السخاء ضرورياً له وبدونه لن يتبعه جنوده، فكل ما ليس لك أو لجنودك يمكنك أن تكون فيه معطاءً جداً. كما فعل "سيزار" و"قيصر" و"الكنسدر"، لأنّه إذا أنفقت من مال الغير لن يُساء إلى سُمعتك، بل على العكس ستُضيف إليها الحسنات، وإنّ ما يُدمرُك فقط هو الإسراف من مالك الخاص، وهل هناك ما يُضني مثل الكرم.. به تفقد مواردك وتُصبح فقيراً ومُحترقاً أو جشعاً ومكروهاً لتهرب من الفقر، ومن بين الصفات التي على الأمير تجنّبها هي أن يكون مُحترقاً أو مكروهاً.. ومع الكرم تقودك الواحدة إلى الأخرى..

بالخلاصة.. هناك حكمة أكبر في أن يحتفظ الأمير بلقب البخيل الذي
يولّد سمعة سيئة دون كره، من أن يعيش في عوزٍ ليحصل على لقب الكريم
الذي يُرافقه بالضرورة صفة الطمع التي تولّد سمعة سيئة مُرافقة بكره
وحدق.